زواج تولستوي (*)

الأستاذ محمود الخفيف

(بعثه من مصر في العدد الماضي)

وعادت الأسرة إلى موسكو فكان يزورها كل يوم ، ومازال أهل الدار ما عدا صوفيا وتاتيانا يعتقدون أن الكونت يتجه بقلبه إلى ليزا ...

وظل على هذه الحال أسبوعين بعد ذلك لا يقطع زيارته ولا يجمع عزمه على رأى ؛ ولقد جاء في مذكراته في السابع من سبتمبر قوله « لقد بقيت يومين بالبيت أفكر على انفراد في أخرى لا تدفع نفسك يادوبلتسكى حيث الشباب والجمال والشعر والحب فإن لهذه أيها الشيخ من هم أصغر منك ؛ إن موضعك في صومعة من صوامع العمل حيث تطلع من عزلتك في سرور وهدوء على سعادة الآخرين وحبهم . لقد عشت في هذه الصومعة وساعود إليها » وأتبع بعد ذلك بيومين قوله « أى دوبلتسكى لا تحلم ... لقد كتبت لها كتاباً لن أرسله ، لم أستطع أن أنام لمدة ثلاث ساعات ؛ لقد حلمت وعذبت نفسى كما يفعل غلام في السادسة عشرة » وقال في اليوم التالى « إنى أشعر بالحب أكثر من أى يوم سلف . . وإن الأمل لا يزال في أعماق نفسى يجب أن أحل هذه المعضلة ... لقد بدأت أكره ليزا وإن كنت أرثى لها . . أعنى يا إلهى وأرشدنى . . إن أمامى ليلة طويلة فارغة أقضيها ، ذلك يؤلمنى أنا الذى طالما ضحكت من آلام المحبين ! كم ذا رسمت من خطة كى أصرح لها ولتانيا ولكل امرىء ولكن عبثاً حاولت ... لقد أخذت أزدرى ليزا من كل قلبي »

كان مرد هذه الحيرة الشديدة إلى أنه يخشى ألا يكون ما يحسه نحوها حباً كما يكون الحب ؛ كان يخاف من نفسه على حد تعبيره ، ويزيده خوفاً أنه كلما تدسس إلى شعورها ليتبين ما إذا كانت بها عيوب وجد نفسه منجذباً إليها ..

وفى الثانى عشر من سبتمبر كتب فى مذكراته « إننى أحب

تولستوى عند الأربعين

اليوم على صورة لم أكن أصدقها من قبل ... لقد بلغ بى الجنون أنى أخشى أن أقتل نفسى إذا ما لبثت على هذه الحال . لقد قضيت المساء عندهم ؛ لقد بدت لى بهيجة ، ولكننى دوبلتسكى القبيح يجب أن آخذ أهبتى وشيكا . لا أستطيع التكوص الآن ، ولو أننى دوبلتسكى إلا أن الحب غيرنى . لقد سنحت لى فرص ولكنى لم اغتنمها . منعنى الخوف ، ولكن كان على أن أتكلم فى بساطة إنى أحب أن أعود إليهم فأذكر كل شىء أمامهم جميعاً »

وفى اليوم التالى كتب يقول « لقد سطرت كتاباً سوف أرسله إليها فى غد ... قوّنى يا إلهى ... ما أشد خوفى من أن أموت ، فإن مثل هذه السعادة تبدو لى مستحيلة . رب أعنى وأرشدنى »

وقال بعد ذلك بيوم « لم أنم إلا ساعة ونصف ساعة ، ولكنى على الرغم من ذلك منتعش جد منتاج » وفى اليوم التالى كتب يقول « أخفقت فلم أحدثها . ولكنى قلت لها إن لدى شيئاً أحب أن أحدثها عنه »

وذهب تولستوى فى مساء السادس عشر إلى آل بيرز وفى جيبه الكتاب الذى أعده والذى ابث فى جيبه ثلاثة أيام ، وألقى

(*) فصل من كتاب « تولستوى » الذى سوف تقدمه إلى مكتبة الثقافة قريباً « مطبعة الرسالة » .

وفيا جالسة إلى البيان ، فجلس إلى جانبها ، والانفعال ملء نفسه بدنه ، وأحست انفعاله فسرى إليها قدر عظيم منه فتشاغلت ور كانت تلعبه قبل مجيئه . ودخلت ثانيا فطلبت إليها أختها ـ تعني تريد بذلك أن تحقق ما في الموقف من اضطراب ... عنت ثانيانا في صوتها الرائق الحلو ، وناداها تولستوي باسم سنية كبيرة هي مدام فياردو إعجاباً بها ، ثم قال لنفسه إذا حتمت ثيانا لحنها خاتمة جيدة فسوف يعطي صوفيا ذلك الكتاب ؛ كانت ثانيانا موفقة كل التوفيق إذ ختمت لحنها ، وانسحبت شيطانة الصغيرة في لباقة ، وقد أحست أنها اللحظة الحاسمة ، ما كادت تغادر الحجرة حتى مدّ تولستوي يده بالكتاب إلى سونيا قائلاً إنه ينتظر ردها ، وتناولته سوفيا بيد مرتجفة ، خرجت به فأسرعت إلى حجرتها وأوصدت الباب وراءها جلست تقرأ . « أي سوفيا .. أصبح الأمر لا يطاق ؛ لقد ظللت أقول لنفسي طيلة ثلاثة أسابيع سأبوح لها الآن ، ومع ذلك كنت أخرج كل مرة وفي نفسي مزيج من الحزن والأسف والرعب والسعادة ! وكنت أنظر كل ليلة نظرة إلى الماضي وأسخط على نفسي أن لم أبح لك وأسأل نفسي ماذا عساي كنت أقول لو أني تكلمت ... لقد ظننت أني أستطيع أن أحبكم جميعاً كما أحب الأطفال ، وكنت في إنفسي لا زلت أستطيع أن أقطع ما بيني وبينكم وأعود إلى خلوتي ، إلى عملي الذي يشغل وقتي كله . . ولكني الآن لا أستطيع شيئاً . أشعر أني أحدثت بيني وبينكم شيئاً من الاضطراب ، وأن صداقتكم لي كما تصادقون جلا شريفاً قد لحقتها بعض الشوائب ، ولذلك لا أستطيع الانطلاق كما لا أستطيع البقاء . . وإني أحمل هذا الكتاب معي وسوف أقدمه إليك إذا لم أجد في نفسي من الشجاعة ما أبوح لك معه بكل شيء ... وإني أعتقد أن أسرتك تنظر إليّ نظرة خاطئة إذ تحسب أني أحب أختك إليزابث وليس هذا بحق ، فإن قصتك لا تجرح عقلي قط ، وذلك لأني بعد أن قرأتها أصبحت أعتقد أنه غير خليق بي ، أنا دوبلتسكي أن أحلم بالسعادة ، لقد كتبت لك ونحن في إنفسي أقول إن شبابك ومرحك يذكراني في صورة قوية بتقدمي في السن وباستحالة السعادة عليّ ... ولكني حينذاك كنت أكذب على نفسي ولا زال هذا حالي ؛ إنك فتاة أمينة صريحة ، فدليني ويدك على قلبك دون أن تتعجلي — وإني أناشدك الله ألا تتعجلي — ماذا عسى أن أفعل ؟ لو أني علمت منذ شهر أني سوف ألقى مثل هذا الألم الذي عانيته طيلة هذا الشهر لضحكت حتى يقتلني الضحك . ينبغي لكل ما في نفسك من إخلاص : أتكونين زوجة لي ؟ إذا كنت تستطيعين أن تقولي : نعم وأن تقوليها من أعماق نفسك فقوليها ، ولكن إذا كنت تحسين أدنى شك فقولي لا . . نشدتك الله أن تفكري ملياً في الأمر ، وإني لأمتلىء رعباً كلما فكرت في قولك لا ، ولكني أوطن النفس على تحمل ذلك ، وسوف أقوى على تحمله بعد أنه من الأمور المفجعة ألا تحبني من تكون لي زوجة بقدر ما أحبها

وسمعت سونيا دقات عنيفة على الباب ، وصوتاً هو صوت أختها ليزا ينادي في إلحاح أن تفتح ففتحت فقالت أختها ! ماذا كتب لك الكونت ؟ نبئيني . ووقفت سونيا جامدة والكتاب في يدها ، فقالت ليزا صائحة أخبريني الساعة ماذا كتب لك الكونت فقالت سونيا في عبارة فرنسية : إنه طلب يدي ؛ فأجهشت أختها قائلة : أرفضيه ... أرفضيه من فورك !..

ودخلت أمهما فعملت في لباقة على أن تبعد بين الأختين فتخرج بهما من هذا الموقف الحرج وكان الكونت إذ ذاك في الثوي ينتظر ، والقلق ملء نفسه ، وبداء خائب ظهره ، وقد استند إلى الوقد وفي وجهه صفرة لم يعرف مثلها من قبل ، وأرهف سمعه إلى وقع أقدام خفيفة ، وإن قلبه ليثب بين ضلوعه ودخلت سونيا فنظرت إليه قائلة : نعم ... ثم ولت مدبرة .

وتقدمت ليزا فهنأت أختها ، ثم مشت إلى الكونت فهنأته وقبلته في كثير من الكرم والنبل ؛ وجاءت الأم فهنأت سوفيا وفي نفسها من السرور بقدر ما فيها من الشفقة على ليزا .

وكان رب الدار قد مسته وعكة من قبل فتذرع بها وتردد فلم يهنىء الكونت ، ولم يبد ارتياحه لأنه كان يحب ليزا ، وأظهر الطبيب الشيخ كثيراً من الرثاء لابنته ، ولكن ليزا نفسها ما زالت تستحلفه والدموع في عينيها ألا يغضب أختها ، حتى اطمأن فؤاده فذهب إلى تولستوي وصالحه مهنأ .

وتصادف أن كان اليوم التالي يوم ميلاد الأم ، وكانت دار الطبيب تبرز ملأى بالضيوف فأعلنت الخطبة وأقبل الضيوف على العروسين مهنئين ... وغابت ليزا عن الوائد متوارية من القوم ، الأمر الذي تألم له قلب تولستوي على الرغم مما كان يفيض به من فرح ، ولقد تحدث بهذا إلى عروسه ، وهو الذي لا يحب منذ طفولته أن يؤلم أحداً . .

محمود الخفيف